المحاضرة العاشرة

الأنثربولوجيا التحليلية والممارسات الطقوسية

تمثل الطقوس بالنسبة للأنتروبولوجيا عنصرا أساسيا في الحياة الدينية. ودراستها تمثل قطاعا مهما في أنتروبولوجيا الأديان، ولكن أيضا في الأنتروبولوجيا وعلوم الإنسان. لقد عولجت الطقوس من زاوية الأصول (في التطورية) ومن زاوية مساهمتها في الحياة النفسية والاجتماعية (في الوظيفية) ومن زاوية الدلالات والرموز التي تجسدها أو تحملها في البنيوية والثقافية). وهكذا فإن الطقوس موضوع مفضل لأنتروبولوجيا الأديان. وهي تبدو كسمة مميزة للمجتمعات التقليدية والطقسية والدينية عن المجتمعات غير الطقسية أو التي أصبحت فيها الطقوس بعيدة عن الحياة الاجتماعية للمجتمعات العلمانية.

1. تعريف الطقس:

كلمة طقس مأخوذة من الكلمة اللاتينية ريتيس Ritus التي تشير إلى معنى عبادة، إلى حفل ديني ولكن أيضا وبشكل واسع الى عادة أو عرف. ولكن من الصعب تعريف الطقس. فهو مفهوم يتصل بعلوم كثيرة نجده لدى الإتنولوجيين، وعلماء الاجتماع، كما نجده في علم النفس الاجتماعي والتحليل النفسي، ولدى علماء العادات. ومن أجل الوصول إلى تعريف متماسك ومحدد يجب أولا استدعاء معنى كلمة طقس في مختلف العلوم ومن ثم تبيان العلاقات مع مفاهيم عديدة قريبة غالبا.

في التحليل النفسي: مع التسليم بالوظيفة الجمعية للطقوس، يهتم التحليل النفسي خاصة بأشكالها ووظائفها الخاصة كمسعى يتبناه الفرد في إطار الأوضاع العادية تحت تأثير إكراه التكرار والوسواس العصابي، ويظهر أن الشعائر أو الطقوس تشير دائما الى سلوكيات خاصة مرتبطة بوضعيات أو بقواعد محددة، مطبوعة بالتكرار، ولكن دورها ليس واضحا.

ومهما كانت التنوعات المحسوسة والتنوعات خلال الفضاء والزمان فإن وجود الشعائر الاجتماعية يبدو عالميا.

كلمة طقس تشير إلى مجموع الأفعال المكرورة والمقوننة، غالبا احتفالية ذات طابع شفهي أو حركي وجسدي ذات حمولة رمزية، قائمة على الاعتقاد في قوة فاعلة للكائنات أو قوى مقدسة، يحاول الإنسان الاتصال معها من أجل الحصول على غاية محددة بشكل واسع تشير كلمة طقس إلى كل سلوك مقولب مكرور وإلزامي.

يذهب بيير أرني إلى أنه عندما تقترن الأسطورة بالرمز والعقل نصل إلى الطقس. ويعرفه: "يمكن أن يشير الطقس إلى مجموع الاحتفالات الثقافية التي تجري في جماعة دينية أو جماعة اجتماعية، وتنظيمها التقليدي" من أجل أن يكون ثمة طقس ينبغي:

- أن يكون هناك سلوك خاص، فردي أو جماعي.
- أن يأخذ الجسم كحامل بشكل مباشر أو غير مباشر.
- أن يرتبط بوضعيات وقواعد محددة.
- أن يقوم على التكرار.
- له معنى معيش وقيمة رمزية بالنسبة لفاعليه.
- أن يفترض موقفا عقليا من نظام الاعتقاد.

الطقس والرمز : كلمات رمز، رمزي هي أيضا تتميز بمعنى واسع ومتغير. على مستوى اللغة الجارية نقول مثلا أن الخاتم أو العلم أو الصليب هي رموز للزواج والوطن والمسيح. وأن الكلب يرمز إلى الإخلاص والثعبان إلى الخداع الفن والشعر والدين يعمدون إلى الرموز. وفي كل الحالات يتعلق الأمر بشيء غائب عن إدراكنا المباشر يتم تمثله. والممارسات الطقسية رمزية للغاية ذلك أنها تتوسط بواسطة وضعيات الجسم أو الحركات أو الكلمات علاقة بحقيقة ليست فقط غائبة ولكن من المستحيل إدراكها، لا يمكن بلوغها إلا عن طريق الرمز، نرى إذن كم هما متضامنان الطقس والرمز، رغم إمكانية وجود أنساق من الرموز دون طقوس كما في الرياضيات، ولكن يتعلق الأمر هنا بالنسق الأكثر تجريدا والأكثر عقلنة، بينما كل الأنساق الأخرى كالفنون والأساطير والأيديولوجيات.

الجماعة العلاجية في الموروث الثقافيي:

يمثل الطب الشعبي موروث من الموروثات الثقافية و خاصة الجماعي منه اذ يتم الإقبال على الجماعة العلاجية من طرف الآخر لأنه يجد فيها الوقوف إلى جانبه وتدعمه في شدته ومرضه،

على اعتبار أنه كان في حياة مليئة بالضغوطات وبالتالي فهو يأتي لهذه الجماعات الشعبية ليجد نوعا من الراحة أثناء تأدية الجماعة لطقوسها، و على المشارك في الطقس أن يستظهر ألامه (التعب، الحزن...) ، ويبين أن مصيره هش وأنه جاء ليطلب المساعدة من الجماعة، وهو ما نعبر عنه في مصطلحنا العامي بالنية ، وعلى الجماعة أن تتجاوب معه في طلبه التدعيمي والوقوف إلى جانبه ليجد الراحة وتحطيم وحدته ويتخلص من معاناته وذلك باللجوء للمقدس، إذن فالفرد في عصرنا الحالي بدأ يبتعد عن الدين ولكن عند المرض يجد نفسه بحاجة إلى هذا الدين لكي يتخلص من المواقف التي تكون فوق قدرته، فهو دائما يحتاج إلى تجربة المقدس .وتجدر الإشارة إلى أن هاته المجموعات العلاجية غالبا تنتسب إلى طرق صوفية مثل الفرقة العيساوية و غيرها والتي تنتشر زواياها وموردوها في بعض التراب الوطني.

الممارسات العلاجية الجماعية الفلكلورية :

هي عبارة عن حفل ذو طقوس خاصة، منها ما يستهدف طرد الأرواح أو استرضائها ويتم ذلك من خلال تقديم أضاحي وقرابين، ومنها ما يهدف إلى الترويح بشكله الشامل، بحيث تشكل الرقصات الفلكلورية في هاته الممارسات الطقسية الدعامة الأساسية مرفوقة بإيقاعات ساخنة وسريعة. ومن خلال تأدية الرقصات التي تعتبر تعبير ثقافي للجسد فهو تعبير عن حالة انفعالية الجسم من خلالها يتسامى من كل ما هو مدنس إلى ما هو مقدس. تؤدى هذه الطقوس في شكل جماعي فرق أو جماعات أين يطغى عليها جو من الروحانيات، هذا الجو المفعم بالأهازيج والذي تصل بصمته إلى الآخر.

الوظائف العلاجية للممارسات الطقسية الفلكلورية: من أهم هذه الوظائف نجد:

التنفيس: هو إطلاق سراح الانفعالات أو الرغبات المكبوتة بأي وسيلة من الوسائل، كإخراجها من العقل الباطن إلى العقل الظاهر، والتفكير فيها مرة أخرى وإرضائها بالفعل والعمل بمقتضاها، كأن يحصل الطفل على ما كان قد حرمه من لعب أو منزلة لدى أبيه أو أمه أو أستاذه أو يحصل شخص على ما كان يرغب فيه .يورد علماء النفس اعتراضا فيقولون فيما يخص فعالية العلاج من خلال التنفيس فيما إذا كان النجاح في العلاج يرجع في الواقع إلى التنفيس نفسه أو إلى استعادت الذكريات الماضية، ونقل الرغبات المكبوتة من

العقل الباطن إلى العقل الظاهر"؛ إن الأمرين كثيرا ما يحدثان معا عند التنفيس حينئذ يعد التنفيس وسيلة للإسراع في العلاج؛ على أن التنفيس قد ينفرد بالعلاج إذا كان السبب شعوريا يعلم به المريض ولكن يخفيه.

التفريغ: يرى المنحى التحليلي أن الحد من السلوك العدواني يتمثل في تفريغ الشحنات العدوانية ويعتقدون أصحاب هذا الرأي كذلك أن تفريغ ما بداخلهم من خلال نشاطات مثيرة وغير ضارة يمكن أن يحد من السلوك العدواني.

التصريف: هو تفريغ انفعالي يتخلص الشخص بواسطته من العاطفة المرتبطة بذكرى حدث صدمي، مما يحول دون تحوله أو بقائه مولدا للممرض وقد يتم التصريف الذي يمكن افتعاله خلال العلاج النفسي.

التسامي:هو القدرة على التصعيد على ضوء إيمان الحالة أو الفرد بهذا التسامي تحت إيقاع الموسيقى والغناء الديني، حيث تترهل تدريجيا الحواس الخمس (العالم الحسي) فيضعف البصر ويقل السمع ويتعطل اللمس والذوق، وفي المقابل يبدأ الجهاز العصبي الذاتي اللاإرادي بالنشاط والحيوية)تتلاشى القدرة الحسية للعصب الذاتي تماما وتنشط القدرة الحركية له تماما)، فتزداد إفرازات المعدة دون أن يشعر بها (بسبب تعطل إحساس العصب التائه المغذي للمعدة، وتزداد ذبذبة الموجات الدماغية وكهربائيتها في المناطق الحركية في المناطق الحركية، في حين تنخفض في المناطق الحسية، ولذلك فعند توجيه أي ضربات عنيفة لهذا الشخص فإن النقل الحسي يكون عاجزا عن إشعاره بأي ألم .

ونجد أن التسامي عند فرويد نوع من تعديل الهدف وتغيير الموضوع الذي يدخل فيه تقويمنا الاجتماعي (للمسألة) بعين الاعتبار، أما ميلاني كلاين فتشير إلى أن التسامي نزعة نحو تعويض وإصلاح الموضوع (الطيب) الذي مزقته النزوات التدميرية إربا في نفس ذلك الخط الفكري.

التطهير: هو التنقية وعند "أرسطو" هو تصفية انفعاليتي الشفقة والخوف اللذان تثيرهما التراجيديا، ويشير كذل إلى أن الموسيقى تمارس نوعا من التطهير بتأثيرها على الإنسان أي "يكون الناس جميعا في حالة تطهر وتستضيء نفوسهم وتبتهج"، وقد ورد مصطلح تطهير عند اليونان بمعاني عديدة : ديني، جمالي، فسيولوجي، طبي، وهنا يتضح أن التطهير يحتوي على عناصر فسيولوجية والتطهير هو اسم أطلق على أول منهج في العلاج النفسي وقد جاء من طقوس الإغريق المعتمدة في الشد والتلقين، بحيث يعقد المريض صلة مع مؤخرة عقله بواسطة التنويم أو بدونه، أي بوضع المريض في حالة التأمل والتفكير . ويهدف العلاج بالتطهير إلى الاعتراف الكامل لا مجرد إقرار العقل بالوقائع بل تثبيت بواسطة القلب وإطلاق فعلي للمكبوت من الانفعالات، للاعترافات التي تكون إثر عملية التطهير أثر عظيم في نفسية الإنسان والشقاء الذي ينتج عنها غالبا ما يبعث على الدهشة.

فبعض العلاجات الجماعية الفلوكلورية تلعب فيها الحركة(الرقص) دور أساسي في إطلاق الطاقات المكبوتة في وجدان المؤدي من خلال عنف الحركة و عنف دق الطبول إذ يعبر المؤدي عن عواطفه وانفعالاته من خلال حركات الجسد و من خلال الأغاني و التراتيل المعينة تتحقق الإثارة النفسية داخل الجماعة دون قيود وهذا ما أشار إليه برونو ليفيين في دراسته عن الزار المصري و التي كانت تبحث في علاقة رقصة الزار بشعائر الرقص الطبي عند شعوب أخرى وبجنون الرقص في العصور الوسطى.

إذن فهي تعتبر طريقة علاجية اجتماعية ونفسية، وهي تعطي وتوفر للفرد مجموعة من الدفاعات الثقافية الأثنوسيكولوجية بحيث تمكن العميل من مواجهة الصراعات التي تحيط به.
من خلال الارتباط ومشاركة المحيط العائلي للمريض في هذا الطقس (النشرة) أو الجو المملوء بالحرارة العاطفية الإنسانية، يساعد هذا على طرد العدوانية أو تفريغها وإعادة التنظيم المفترض أن يكون بين هؤلاء (المريض، الأقارب، الأصدقاء، الفرقة أو الجماعة العلاجية)، وهذا يتم على عدة مستويات:

أ- العميل (الحالة) تكون محمية ومراقبة من طرف عائلتها وتتمتع بنوع من الحماية والرعاية بحيث يلبسونها أحسن حالة وتتزين ويتركونها وحدها بعيدا عن الإزعاج، ومن خلال هذه الإجراءات فهي تعتبر مركز هذا العلاج وهي المهمة كذلك في هذا الحفل.

ب-أجواء الموسيقى والرقص وحركات الجماعة العلاجية تجعل للمريضة (الحالة) شيء من الحرية أين يخلق عندها نوعا من التنفيس.

ت-الاحتفال الدوري المتمثل في النشرة هو شيء جيد يشبه في ذلك العبادة التي تحسن من الاضطرابات النفسية. فالنشرة عبارة عن تجربة حامية وتصحيحية وهي طريقة جيدة تسمع بحجز أو جمع الصراع وإعادة تنظيم الآليات الدفاعية بالتدريج للوصول إلى وضعية أحسن فأحسن، وذلك من خلال الجمع الذي حول المريضة من طرف أهلها وأصحابها وأصدقائها.

إذن في حالات الاضطرابات النفسية وخاصة التي يسيطر فيها القلق تعمل الثقافة من خلال طقوس النشرة بتوفير بعض التعليمات أو التسهيلات أين يستطيع الفرد العميل الخروج عن المألوف دون رقابة اجتماعية، يعتبر علاج النشرة علاجا مؤقتا.
فالعلاجات الجماعية التقليدية وخاصة التي تعود فروعها إلى الأصل الأفارقي هي علاجات جماعية متعددة الأقطاب ؛المطبب ومساعده هذا الأخير الذي يجمع بين قوة الأعشاب (التداوي بالأعشاب) وقوة الكلمة، ليس كونها علاج نفسي فقط، فأغلب هاته العلاجات التي مرت بنا نجد أن لسلطان الكلمة الحظ الوافر في العلاج من خلال الأهازيج التي تردد وما تحتويه من عبارات ذات دلالة و مدلول، فالكلمة تعني القوة وهي تحديدا القوة نفسها في سلطتها المحررة، كما في سلطتها المحطمة، فهي التي تشفي وترافق بل وتنشط أيضا مختلف مراحل الطقس العلاجي، ولذا فالكلمة تحرر، الكلمة تصلح ذات البين، والكلمة تعيد إدماج الفرد في المجتمع وهي لا تختزل إلى مجرد أداة للتواصل فقط.